كنتَ واثقاً أنَّ نتيجة هذا العمل فى صالحك ، ووفْق هواك ، ولو كنتَ تعرف أن النتيجة على خلاف ما تريد ما أعطيتَه الفَرصة لإعمال عقله .

ومثَّلْنَا لذلك بالبائع الذى يبيع سلعة جيدة ، فإنه يدعوك إلى فحصها وتأمُّلها والتأكد من جودتها ، فبائع الأصواف مثلاً يعرض عليك الثوب ، ويُبيِّن لك جودته ، ويشعل الثقاب ، ويحرق لك خيطاً من خيوط النسيج ، إنه لا يفعل ذلك إلا وهو واثق من جودة بضاعته وأنك لابُدَّ مقتنع بها ، حريص على شرائها ، أما الغَاشُّ فيحاول إقناعك بكلام نظرى معظمه كذب وتدليس ، ويحاول أنْ يصرف ذهنك وفكرك فى الشىء ، لأن النتيجة لن تكون فى صالحه .

كذلك الحق - سبحانه وتعالى - يقول ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) ﴾ [يس]

يعنى : لو عقلتم لَتوصلْتُم إلى الحق ، وإلى الصراط المستقيم .

﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (٦٥) ﴾

هنا أيضاً اعتبر التخويفَ من جهنم وعداً لا وعيداً ، وسبق أنْ عرفنا أن الوعد فى الخير ، والوعيد فى الشر ، ومن ذلك قول الشاعر[1] :

يَا دَهْرُ يَا مُنْجِزَ إيعَادِه ... وَمُخْلِفَ المأْمُولِ منْ وَعْدِه [2]

(١) هو أبو العلاء المعرى ، شاعر وفيلسوف ، ولد وتوفى (٤٤٩ هـ) فى معرة النعمان ، عمى فى السنة الرابعة من عمره ، قال الشعر وهو ابن ١١ سنة ، كان يلبس خشن الثياب ولم يأكل اللحم ٤٥ سنة .

(٢) البيت من قصيدة لأبى العلاء المعرى من بحر السريع عدد أبياتها ٥٠ بيتاً.

وقُلْنا : سَمَّى ذلك وعداً ؛ لأن التحذير من الشر قبل الوقوع فيه يُعَدُّ خيراً ؛ لأنك تستطيع تدارك الأمر ، وتصحيح الخطأ .

وقوله سبحانه : ﴿اصْلَوْهَا (٦٤)﴾[يس] ادخلوها ، واصْطَلُوا بنارها ، واحترقوا بلظَاهَا ، ﴿الْيَوْمَ (٦٤)﴾[يس] أى : يوم الجزاء اليوم القائم الذى نحن فيه ، أما ما قبله فقد مضى ومضتْ معه اللذات التى جاءت بكم إلى النار ، ذهبتْ اللذات وبقيتْ تبعتها ، ولم يعُد أمامكم إلا النار تحترقون فيها ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤)﴾[يس] يعنى : هذه النار ليست ظُلَماً ، إنما جزاء كفركم بنعمة الله ، وهذا تقريع لهم ؛ لأنهم لم يعرفوا للحق سبحانه نعمه عليهم ، ولو عرفوا لله هذه النعمة ما كفروا بها .

لذلك حين تُحسن إلى إنسان ، فيقابل إحسانك بالإساءة يخجل أن يقابلك ، ويستطيع أَنْ يتحمل منك أىَّ عقاب ، إلا أن تواجهه أنت ، لماذا ؟ لأن حياء المسىء من المحسن أشدُّ عليه من العذاب ، فكأن الله تعالى يقول لهؤلاء الكفرة بنعمه : استحيوا من الله ، لأنه أنعم عليكم فكفرتم بنعمه ، ولو أن عندكم إحساساً لكان تذكيركم بكفركم أشدَّ عليكم من هذه النار التى تَصْلَوْنها .

ثم يقول سبحانه واصفاً حالهم ، والعياذ بالله : ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥)﴾ [يس]

قوله ﴿الْيَوْمَ (٦٥)﴾[يس] أى : يوم القيامة والجزاء ﴿نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ (٦٥)﴾ [يس]

نضرب عليها فلا يستطيعون الكلام ، فالأفواه مَنَاط الكلام ، وقبل أن يختم الله على أفواههم فى الآخرة ختم على قلوبهم فى الدنيا ، بالأمس ختم اللهُ على القلوب فلا يدخلها إيمان ولا يخرج منها كفر ، واليوم ختم الله على الأفواه ومنعهم الكلام ، حتى لا يعتذرون ولا يستغفرون .

فالمقام هنا مقام حساب لا عمل ، فلا جدوى من الاستغفار ، ولا فائدة من الاعتذار ، بل انتهى أوان الكلام والمنطق ، ولم يَعُد للسان دَوْر ، اليوم تُغْلَق الأفواه وتُقيَّد الألسنة لتنطق الجوارح .

وتأمل بعدها : ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥)﴾[يس] القياس كان يقتضى أنْ يقول الحق سبحانه ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ (٦٥)﴾ [يس]

ومثلها : ونُنْطِق أيديهم ونُشهد أرجلهم ، لكن السياق القرآنى هنا مختلف ، فبعد أنْ يختمَ اللهُ على أفواههم تُكلمنا أيديهم تطوعاً لا أمراً ، وتشهد أرجلهم تطوعاً لا أمراً ، فلم نقل للأيدى : تكلمى ، ولم نقل للأرجل : اشهدى .

وإنما تطوعتْ هذه الجوارح بالشهادة ، مع أنها هى نفس الجوارح التى بُوشِرت بها المعاصى والذنوب فى الدنيا ، ومع ذلك تشهد لا على نفسها ، إنما على النفس الواعية التى أخضع اللهُ لها الجوارح ، وأمرها أن تسير وِفْق مرادها ، ورهْنَ إشارتها فى الدنيا .

أما ونحن الآن فى الآخرة ، وقد تحررتْ الجوارحُ من تبعيتها للنفس الواعية ، وأصبح الملْكُ كله والتفويض كله لله تعالى ، فالآن تتكلم الجوارح بما تريد ، وتشهد بما كان أمام الرب الأعلى سبحانه .

وسبق أنْ مثَّلْنَا هذه المسألة بالكتيبة من الجيش يرسلها القائد الأعلى ، وعلى الكتيبة أن تطيع أوامر قائدها المباشر ، ولو كانت الأوامر خاطئة ، إلى أن تعود إلى الأعلى ، فتشكو له ما كان من القائد المباشر ، هكذا الجوارح يوم القيامة .

فإنْ قلتَ : فلماذا أسند التكلم للأيدى ، والشهادة للأرجل ؟ نقول:

لأن جمهرة الأعمال عادة تُسند إلى الأيدى ، حتى لو كان المشى وسيلة العمل ، وطالما أن الأيدى تتكلم ، فكأنها أصبحتْ مُدَّعية تحتاج إلى شاهد فتشهد الأرجل .

أما مسألة : كيف تنطق الأيدى ، فالذى أنطق اللسان وهو قطعة من لحم ودم قادر على أنْ يُنطق باقى الأعضاء الأيدى أو غيرها ، وما دام الفعلُ لله تعالى فلا داعىَ للسؤال عن الكيفية ، ثم إن الأيدى بها من الأعصاب أكثر مما بأعضاء الكلام .

وقوله تعالى : ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾[يس] ولم يقُلْ : بما كانوا يعملون ، لأن هناك فرقاً بين إنسان يُقبل على المعصية لكنه لا يفرح بها ، بل يندم عليها ويعاقب نفسه على ارتكابها ، وآخر يعتبر ارتكاب المعصية مكسباً فيفرح بها ، ويتحدث عنها ويتباهى بارتكابها .

ومن حيث التحقيق اللغوى لمادة (كسب) ، فإن هذا الفعل يأتى مجرداً (كسب) ، ويدل على الربح فى البيع والشراء ، وعلى العمل يأتى من الإنسان طبيعياً ، لا تكلُّفَ فيه ولا افتعال ، وغالباً ما يُستخدم فى الخير .

ويأتى هذا الفعل مزيداً بالهمزة والتاء (اكتسب) ، ويدل على الافتعال والتكلّف ، وتُستخدم هذه الصيغة فى الإثم ، وأوضحنا هذه المسألة فقلنا : إن الإنسان حين يفعل الخير يأتى الفعلُ منه طبيعياً تلقائياً ، أما الشر فيتلصص له ويحتال ، ذلك لأن الخير هَيِّن لَيِّن سهل مقبول ، أما الإثم فشَاقٌّ مخجل .

أنت حين تجلس مثلاً بين أهلك ترى زوجتك أو بناتك أو عمتك أو خالتك .. الخ وفيهن الجميلات والحسان ، وأنت تنظر إليهن جميعاً

دون تكلُّف ودون خجل ، لأنه أمر طبيعى ، أما مع غير المحارم ومع مَنْ يحرم عليك النظر إليهن ، فإنك تسرق النظرة وتحتال لها ، حتى لا ينكشف أمرك ، ولا يطلع أحد على نقيصتك .

فإذا جاءت كسب محل اكتسب ، فاعلم أن صاحب المعصية ومرتكب الإثم قد تعوَّد عليه وألفه ، حتى أنه يفعله كأمر طبيعى فلا يخفيه ولا يستحى منه ، بل يجاهر به ، فعَدّ الاكتساب فى حقه كسباً ، كما فى هذه الآية :

﴿ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) ﴾ [يس]

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا[1] عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ (٦٦) ﴾

يعنى : كما ختمنا على أفواههم ومنعناهم الكلام لو شئْنا لطمسنا أعينهم يعنى : أغلقناها وسوَّيناها ، بحيث لا يظهر لها أثر فى وجوههم ، وإذا طمسنا على أعينهم فقدوا البصر ، فكيف يبصرون وهم يسابقون إلى الصراط ؟

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (٦٧) ﴾

---

(١) المطموس والطميس عند أهل اللغة : الأعمى الذى ليس فى عينيه شق . وفى هذه الآية تأويلات : **أحدها :** أن هذا فى الدنيا . قال ابن عباس : المعنى لأعميناهم عن الهدى ، فلا يهتدون أبداً إلى طريق الحق

ثانيها : أى أعميناهم فلا يبصرون طريقاً إلى تصرفهم فى منازلهم ولا غيرها . قال القرطبى : وهذا اختيار الطبرى .

ثالثها : أن هذا فى الآخرة . وقد رُوى هذا عن عبد الله بن سلام . وعلى هذا يكون الصراط فى الآية يكون هو صراط يوم القيامة . راجع تفسير القرطبى (٥٦٨٧/٨)

لقائل أنْ يقول : إذا فقدوا البصر على الصراط ، فقد تكون لهم بدائل وحيل تُسعفهم ، كأن يتحسس طريقه بعصا مثلاً ، أو يجد مَنْ يأخذ بيده ويرشده ، فالحق سبحانه وتعالى يُطوِّقهم من كل نواحيهم ، ويقطع أملهم فى النجاة ، فيقول : ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ (٦٧)﴾ [يس]

فالأمر لا ينتهى عند العمى والطمس على الأعين ، إنما هناك ما هو أشد ، أنْ يمسخهم فى أماكنهم ويجمدهم فيها ، فلا يستطيعون حراكاً .

والمسخ أنْ يصيروا كالمساخيط لا يتحرك ، أو مسخناهم يعنى : حوَّلنا صورهم إلى صور قبيحة ، إذلالاً وإهانة لهم .

والمعنى الأول أوجه[1] ، لأنه تعالى قال بعدها : ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (٦٧)﴾ [يس]

لأنهم تجمدوا فى أماكنهم ، فلا حركة لهم لا إلى الأمام بالمضىِّ فى الطريق الجديد الذى هم مُقبلون عليه ، ولا حتى العودة فى الطريق الذى جاءوا منه وألفُوه .

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ[2] فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (٦٨)﴾

---

(١) وهو قول الحسن البصرى : أى لأقعدناهم فلا يستطيعون أن يمضوا أمامهم ولا يرجعون وراءهم. وكذلك الجماد لا يتقدم ولا يتأخر . أما المسخ بمعنى تغيير الخلقة ، ومسخهم بهائم أو غير ذلك فقد قال به السدى فيما ذكره ابن كثير فى تفسيره (٥٧٨/٣)

(٢) النكْس : قلب الشيء على رأسه ، ونكس رأسه : أماله قال أبو إسحق : معناه من أطلنا عمره نكسنا خَلْقه فصار بدل القوة ضعفاً ، وبدل الشباب هرماً ، وقال شمر : يقال نكس الرجل إذا ضعف وعجز . [لسان العرب - مادة : نكس] قلت : علاقة معنى الكلمة بإمالة الرأس فى نحو ﴿نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ (١٢)﴾ [السجدة] أن العجز والهرم بسبب إطالة العمر والهرم يتسبب فى أن يمشى الإنسان منحنياً مميلاً رأسه خاضعاً برأسه إلى أسفل ، وقد يكون متكبراً على الله فى حياته . والله أعلم .

الحق سبحانه قد أعذر بأنه أنذر ، وأعذر لأنه قال لهم لا تعبدوا الشيطان وبيَّن عداوته ، وقال : اعبدونى واسلكوا صراطى المستقيم ، إذن : ليس لهم عذر حين كفروا بالله وأطاعوا الشيطان وعبدوه ، لكنهم قد يعتذرون من ناحية أخرى فيقولون : يارب أنت أخذتنا ولو عشْنا لاهتدينَا وعُدْنا إلى الصراط المستقيم ، فيرد الله عليهم : ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ .. (٣٧)﴾ [فاطر]

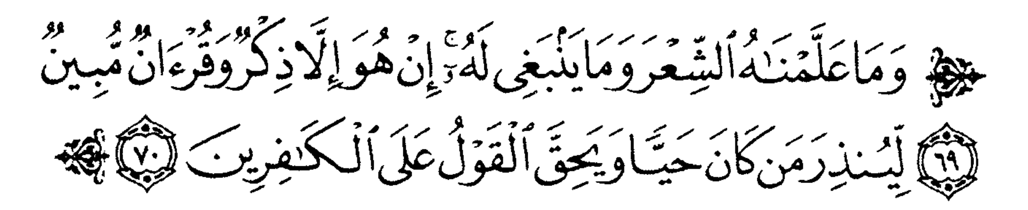
يعنى : قد عمَّرناكم عمراً طويلاً يكفى للتذكُّر والعودة فلم تعودوا ، ثم إن التعمير يُورث الضعف والوَهَن وعدم القدرة ، فأنت فى أول الحياة عندك فتوة وقوة ونشاط بدنى وذهنى ، لكن مع الكِبَر تضعف البنية ، وتقلُّ القوة العضلية والعقلية ، ويعود الإنسان إلى الضعف الذى بدأ به وهو طفل صغير ، وكما قال تعالى : ﴿لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ..(٧٠)﴾ [النحل]

فإذا كنتم لم تعودوا ولم ترعووا فى فترة القوة وسلامة العقل والتفكير ، أتعودون فى فترة الهَرم والضعف والنسيان ؟

لذلك يقول هنا الحق سبحانه : ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ (٦٨)﴾[يس] نطيل عمره ونَمُد له فيه ﴿نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ (٦٨)﴾ [يس] الانتكاس : العودة إلى الوراء ، والرجوع إلى ما كنتَ عليه أولاً ، فَطُول العمر يعود بالإنسان إلى مرحلة الطفولة الأولى ، فهو نكسة فى حقه حين يصير شيخاً هرماً لا يستطيع الحراك ولا الكلام ، وتأخذ ذاكرتُه فى الضعف فينسى ويخرف ، فهو كالطفل تماماً يحتاج مَنْ يحمله ويُطعمه ويُزيل عنه الأذى .. الخ ، فهل فى هذه الحال عودة ؟ وهل ينفع معها تفكُّر وتدبُّر ؟

﴿أَفَلا يَعْقِلُونَ (٦٨)﴾ [يس] يعنى : أين عقولكم فى هذه المسألة ، والحق سبحانه يسوقها بأسلوب الاستفهام ، ولا يأتى بها على سبيل

الإخبار ليجيبوا هم ويُقِرُّوا على أنفسهم بعدم التعقُّل .



نلحظ هنا نقلة فى سياق هذه الآيات ، فما العلاقة التى نقلتنا من الكلام عن الآخرة وجـزاء الكافرين المجـرمين إلى الحديث عن سـيدنا رسول الله ؟

نعرف أن المقاصد الأصلية للتديُّن هى أولاً : توحيد الله ، ومعنى التوحيد لله تعالى أن تشهـد أنه واحد أحد ، ولكل من الوصفين معنى لا يؤديه الآخر ، فلكل منهـما (ماصدق) ، فمـعنى (واحد) أى : من حيث الوجود هو واحد لا فرد آخر معه .

أمَّا أحد فيعنى أنه فى ذاته سبحانه ليس مُكوَّناً من أجزاء ، فالإله أَحَد فى ذاته ، لم تجـتمع عدة أشيـاء فى تكوينه ، ذاته لا ترتكن إلى شىء ، فمثلاً حين تأخـذ الشىء الواحد كالكرسى مثلاً ، الكرسى فى وجوده كرسى واحد ، لكنه ليس واحـداً ، لأنه مُكوَّن من عدة أشياء ، مُكوَّن من الخـشب والمسامـير والغراء و (البـوية) .. الخ فهـو واحد ليس أحداً ، أمـا الحق سبـحانه فلاَ بُدَّ أنْ يُوصفَ بالـوصفين مـعاً ، فنقول : هو سبحانه واحد أحد ؛ لأن لكل منهما معنىً .

ومسـألة الواحدية مـسألة عمليـة عقلية ؛ لأن الله تـعالى أعلن أنه الإله الحق ، وأنه واحـد لا شريك له ، وأنه هو الخـالق وحده ، وهو الرازق ، وهو الذى يسـتحق وحده أن يُعـبدَ ، هذه دعوى لـم يَقُمْ لها معارض ، والدعوى تثبت لصاحبـها إلى أنْ يدَّعيها آخر ، ونحن لم نَرَ أحداً ادَّعَى الخَلْق لنفسه .

فلو كان معه سبحانه إله آخر أو آلهة أخرى فأين هم ؟ لماذا لم يطالبوا بحقهم فى هذه المسألة ؟ أو أنهم سكتوا عنها أو لم يَدْرُوا بها ؟ وعلى أىِّ حال من هذه الأحوال لا يصلحون لأَنْ يكونوا آلهة ؛ لذلك يناقش القرآنُ هذه المسألة بكلام منطقى :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) ﴾ [الإسراء]

إذن : فالتوحيد هو الأساس الأصيل للدين ، لكن لا أعرف بالعقل مطلوبَ الإله منى ، لابُدَّ أن يُبعَث لى رسول يخاطبنى بمطلوب ربى منى ، إذن : لا بُدَّ من رسول . وهذا هو المقصد الثانى للدين . وخطاب الحق للخَلْق طاقة كمال مطلق والبشر نقص مطلق ؛ لذلك لابُدَّ فى هذا الخطاب من واسطة تستطيع التلقِّى عن هذا الكمال المطلق ، وتستطيع التبليغ إلى الأقل كمالاً ، وهكذا تتدرج المسألة ، فالله تعالى يخاطب الملائكة ، والملائكة تخاطب الرسل ، والرسل يخاطبون الناس.

فلا بُدَّ من (الرسالة) وهى المقصد الثانى للدين ، والرسول هو الواسطة بين الخالق والخَلْق ، والرسول ليس مُبلِّغاً فحسب ، إنما مُبلِّغ وأُسْوة سلوك وتطبيق ، كما قال سبحانه : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ (٢١) ﴾ [الأحزاب] ولو كان الرسول ملَكاً لما تحققتْ به الأسوة ، ولا يمكن أن أُحمل على مطلوب الرسول إلا إذا كان الرسول من جنسى .

لذلك يقول تعالى موضحاً هذه القضية : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا (٩٤) ﴾[الإسراء] فيأتى الرد (قُلْ) أى رداً عليهم : ﴿ لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا (٩٥) ﴾ [الإسراء]

إذن : كيف نُنزل مَلَكاً لبشر ؟ لو نزل المَلَكُ على طبيعته النورانية ما رآه البشر ، ولابُدَّ أن يأتيهم فى صورة بشرية ، ولظلَّتْ الشبهة قائمة : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الأنعام]

فلا بد - إذن - من وسائط هى أشبه ما تكون بـ (الترانس) فى عالم الكهرباء ، وهو أداة تأخذ من القوى وتعطى للضعيف دون أنْ تحرقه .

العنصر الثالث للدين هو الحشر ؛ لأن الرسالة جاءتْ لتحمل المنهج : افعل كذا ولا تفعل كذا ، هذا المنهج من الناس مَنْ سيسير عليه فيفعل ما أمر به وينتهى عما نُهى عنه ، ومنهم مَنْ سينصرف عنه بل ويخالفه ، إذن : لابُدَّ من مَرَدٍّ يُثَاب فيه المطيع ، ويُعاقَب فيه المخالف ، هذا المردُّ هو الحشر .

فالحق سبحانه تكلم عن التوحيد فى قوله : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِى آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِى هَـٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾[يس] وتكلم عن الحشر فى قوله سبحانه : ﴿ هَـٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [يس]

والآن يتكلم عن العنصر الثانى وهو الرسالة فنقول عن رسوله ﷺ : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِى لَهُ ﴿٦٩﴾ ﴾[يس] أى : نحن لا المجتمع ولا البيئة التى يعيش فيها ؛ لذلك كانت الأمية فى رسول الله شرفاً ؛ لأنه لو لم يكُنْ أمياً لكانت ثقافته من الخَلْق .

أمَّا أميته فتعنى أنه أخذ ثقافته وعلمه من الله ؛ لذلك كان من شرفه ﷺ أن يكونَ أمياً ، ومن شرف أمته أنْ تكون أمية ، لأنها لو كانت أمة متعلمة لقيل إن ما حدث فى الجزيرة العربية ما هو إلا قفزة حضارية ، كما قالوا : لَمَّا نصرنا الله فى حرب رمضان ورأينا

بأعيننا تأييد الله لنا ، ومع ذلك قالوا : نَصْر حضارى .

فالحق سبحانه يقرر هذه الحقيقة : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ (٦٩) ﴾[يس] لَـكُنَّا علمناه غير الشعر ، فرسول الله مُعلَّم نعم ، لكن مُعلَّم مِنْ مَنْ ؟ من ربه ، لم يأخذ شيئاً من البشر .

وقد يُظَنُّ أن الله لم يُعلِّمه الشعر ؛ لأن الشعر يحتاج إلى ثقافة لغوية وعلْم بالأوزان والقوافى ، ولا بُدَّ له من الحسِّ المرهف والأذن الموسيقيَة إلى آخر هذه الأدوات التى يحتاجها الشاعر وربما لم تتوفر هذه الأدوات لرسول الله كما أنها لم تتوفر لكثيرين غيره .

فيرد الله تعالى هذا الظن ، ويقول :﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ (٦٩) ﴾[يس] يعنى: لم نُعلمه الشعر لنقص فى إمكانياته ، فلو أراد أنْ يقول شعراً لَقَالَ الشعر على أحسن مَا يُقَال ، لكن لا ينبغى له ذلك ؛ لأن مهمة الرسول خلاف مهمة الشاعر ، فأغلب الشعر فى الكذب وفى الشر ، فإذا دخل فى الخير ضَعُفَ ولاَنَ ، ذلك لأن طبيعة الشعر أن ينطلق ويُحلِّق فى الخيال ، وأن يقول الشاعر ما يحلو له أياً كانت غايته ؛ لذلك قالوا : أعذب الشعر أكذبه .

وكثيراً ما نرى الشعراء أصحاب القيم والأخلاق يصعب عليهم الجمع بين مطلوب الإيمان منهم ، وما تدعوهم إليه مَلَكة الشعر عندهم ، فلا يملكون إلا أنْ يحصروا أنفسهم فى شعر القيم والأخلاق والفضائل ، ويبتعدوا عن شعر الهجاء والغزل .

والشاعر المهجرى الذى عُرف عنه التقوى والصلاح ، فحاول أنْ يجمع بين هذه التقوى والموهبة الشعرية لديه ، فقال :

مَوْلاَى إنِّى قَدْ عَصَيْتُكَ عَامِداً لأَرَاكَ أَجْمَلَ مَا تكُونُ غَفُوراً
وَلَقَدْ جَنَيْتُ مِنَ الذُّنُوبِ كِبَارَهَا ضَنّاً بِعَفْوِكَ أنْ يكُونَ صَغِيراً

فأجاد في الأولى ، ولم يُوفَّق في الثانية .

وسيدنا حسان بن ثابت ، كان شاعراً مجيداً في الجاهلية ، فلما أسلم قالوا له : لانَ شعرك يا أبا الحسام . فقال : الشعر نكد يَقْوى في الشر[١] ، فإذا دخل في الخير ضَعُفَ ولاَنَ .

فقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنبَغِي لَهُ (٦٩) ﴾[يس] دفع عن رسول الله الاتهام بأن طبيعته ليست شاعرية ، أو أنه غير مُرْهف الحس ، وأن أذنه غير موسيقية ، إلى آخر هذا الهراء ، وكيف يُتَّهم بهذا مَنْ علَّمه الله ، وباشرتْ أذنه الوحي ؟

أما القول بأن رسول الله ﷺ قد أنشد الشعر ، نعم أنشد رسول الله الشعر ، لكن لم ينشده مستقيماً ، بل خالف فيه حتى لا يظلَّ البيتُ على استقامة وزنه ، فلما أنشد[٢] :

سَتُبْدِي لَكَ الأيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلاً ... وَيأْتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

قال :

سَتُبْدِي لَكَ الأيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلاً ... وَيأْتِيكَ مَنْ لَم تُزَوِّدِ بِالأَخْبَارِ[٣]

وورد أنه ﷺ قال[٤] : « أصدق كلمة قالها لبيد :

---

(١) ذكر ابن قتيبة الدينوري في « الشعر والشعراء » هذه القولة من قول الأصمعي . ثم ذكر حسان بن ثابت فقال : هذا حسان بن ثابت فَحْل من فحول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط شعره .

(٢) عن عائشة قيل لها : هل كان النبي ﷺ يتمثل بشيء من الشعر ؟ قالت : كان يتمثل بشعر ابن رواحة ويتمثل ويقول : « ويأتيك بالأخبار من لم تزود » أخرجه الترمذي في سننه (٢٨٤٨) ، وأحمد في مسنده (٦/١٥٦) .

(٣) كان رسول الله يتمثل بهذا البيت ولا يقيم وزنه ، وهو بيت لطرفة بن العبد ، وقال أبو عبيد بن سلام في كتاب « الأمثال » : روينا في حديث مرفوع أنه ﷺ تمثل به فقال : « ويأتيك من لم تزود بالأخبار »

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٦١٤٧) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٢٥٦) كتاب الشعر (روايات ٢- ٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

أَلاَ كُلُّ شىءٍ مَا خَلاَ اللهَ بَاطِلُ ... وَكُلُّ نَعيمٍ زَائِلٌ لاَ مَحَالَةَ

والصواب :

أَلاَ كُلُّ شىءٍ مَا خَلاَ اللهَ بَاطِلٌ ... وَكُلُّ نَعيمٍ لاَ مَحَالَةَ زَائِلُ

إذن : كان سيدنا رسول الله يكسر وزن البيْت ، حتى لا يقال إنه أنشد الشعر ، مع أن الله تعالى قال : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ (٦٩) ﴾[يس] لكن لم يَنْه رسول الله عن إنشاده ، فكأن رسول الله يحتاط للأمر ، فيقول ولا أنشده أيضاً ، ليكون بعيداً عنه كلية .

هذا عن الإنشاد ، أما عن قوله الشعر بنفسه ، فيرى البعض أنه ﷺ قال شعراً مثل قوله فى غزوة حنين[1] :

أَنَا النَّبِىُّ لاَ كَذِب ... أَنَا ابْنُ عَبْدِ المطَّلِب

نعم جاء هذا القول من رسول الله موافقاً لوزن شعرىٍّ يسمونه الرَّجز ، فهو قول صادف وزناً شعرياً وفرْق بين نَظْم الكلام وإخضاعه للوزن والقافية ، وبين كلام يصادف وزناً دون قصد ، وإلا ففى القرآن نفسه آيات صادفت وزناً شعرياً ، فهل نقول إنها شعر ؟ واقرأ مثلاً :

﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ .. (٩٢) ﴾ [آل عمران]

﴿ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ (٣٢) ﴾ [يوسف]

﴿ نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) ﴾ [الحجر]

هذه وغيرها آيات صادفت وزناً شعرياً ، لكنها لا تُسمَّى شعراً ؛ لأن الشعر قول موزون مُقفًّى قصداً .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٧٦) كتاب الجهاد ، والبخارى فى صحيحه (٤٣١٧) من حديث البراء بن عازب ، وذلك أن رجلاً سأله : أفررتم عن رسول الله يوم حنين ؟ فقال البراء: ولكن رسول الله لم يفر ، وكانت هوازن يومئذ رماة ، وإنَّا لما حملنا عليهم انكشفوا ، فأكببنا على الغنائم فاستقبلونا بالسهام ، ولقد رأيت رسول الله على بغلته البيضاء ، وإن أبا سفيان ابن الحارث آخذ بلجامها وهو يقول : « أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » .

الحق سبحانه حكى عن رسوله أن الكفار اتهموه فقالوا : ساحر وشاعر وقالوا : كاهن ، لكن القرآن رَدَّ عليهم فى مسألة الشعر ، ونفى أن يقول الرسول شعراً : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ ﴿٦٩﴾ ﴾[يس] ولم يَنْفِ عنه السحر ولا الكهانة ، لماذا ؟

قالوا : لأن مهمة رسول الله بلاغ القرآن عن الله ، والقرآن من جنس الأساليب الراقية ، وأقرب شىء إليه الشعر لذلك نفاه القرآن ، أما السحر فطلاسم وكلام لا معنى له ، فلم يَقُلْ : وما علمناه السحر .

ولو أن لهذه الكلمة مدلولاً لكان الرد عليها سهلاً ، فإذا كان محمد ساحراً سحر المؤمنين به ، فلماذا لم يسحركم أنتم أيضاً ، إذن : تكذيبكم له وكفركم به أدَلُّ شىء على أنه ليس ساحراً ، وهل للمسحور إرادة مع الساحر .

وفى قولهم كاهن ردٌّ عليهم : ﴿ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الحاقة] لأن قَوْلَ الكاهن كلام مسجوع سَجْعاً بارداً ، والقرآن خلاف هذا كله ، ثم إنكم أهل فصاحة وبيان ، وأنتم أعلم الناس بالأساليب والتمييز بينها ، فهل يخفى عليكم أنْ تفرقوا بين القرآن وغيره من الكلام وأنتم أمة كلام ، وتجعلون للكلمة أسواقاً ومعارض ؟

ثم يُبيِّن الحق سبحانه العلة فى عدم قول الرسول للشعر ، فيقول سبحانه: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ ﴾[يس] إن هنا بمعنى ما النافية . يعنى : ما هذا القرآن إلا تذكير لمن يعقل وقرآن مبين . أى : بيِّن واضح يُتلَى ، وقد يكون له نَغَم ألذّ فى أذن الوَرَع من الشعر ، لذلك بعض الناس يسمع القرآن فتأخذه نشوة وإعجاب ، ولو سألته تجده لا يعرف ما يحدث له ، لماذا ؟

قالوا : لأن الذى يتكلم الله ، والذى يسمع خلق الله ، فالله تعالى

يتكلم بالكلام الذى يؤثر ويستميل المخلوق لله الذى ما يزال على فطرته التى فطر الناس عليها ، فإنْ خرج عن هذه الفطرة لم يؤثر فيه القرآن هذا التأثير ، ذلك لأن القرآن واحد أمَّا الفطرة المستقبلة فتختلف .

والحق سبحانه يشرح لنا هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿ومنهم مَّن يَسْتَمعُ إلَيْكَ حَتَّىٰ إذَا خَرَجُوا منْ عندكَ قَالُوا للَّذينَ أُوتُوا الْعلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا (١٦)﴾ [محمد] فأمره الله أنْ يردّ عليهم : ﴿قُلْ هُوَ (٤٤)﴾ [فصلت] أى : القرآن ﴿للَّذينَ آمَنُوا هُدًى وَشفَاءٌ وَالَّذينَ لا يُؤْمنُونَ فى آذَانهمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهمْ عَمًى (٤٤)﴾ [فصلت]

ذلك لأن فاعلَ الشىء غير قابله ، وسبق أن مثَّلْنا لذلك بكوب الشاى الساخن تنفخ فيه ليبرد ، وفى الشتاء تنفخ فى يديك لتُدفئها ، فالنفخة واحدة ، لكن المستقبل لها مختلف ، كذلك حال الناس فى تلقِّى القرآن ، فمَنْ تلقى كلام الله بفطرة سليمة فهمه وتأثر به ، ومَنْ تلقى كلام الله وهو منشغل عنه أُغْلق عليه ، فلم يفهم عن الله ولم يتأثر بكلامه .

لذلك نرى بعض الناس من غير العرب لا ينطق بكلمة عربية ، لكنه ساعة يسمع أو يقرأ كلام الله تجد له انفعالَ مواجيد ، وتدمع عيناه ، لماذا ؟ لابد أن شيئاً فى تكوينه تأثر بهذا الأسلوب .

وإذا كان الحق سبحانه أوحى إلى الجماد فانفعل لكلامه ، وأوحى إلى الحيوان ففهم عنه ، فمن باب أَوْلَى يكلم الإنسان العاقل بكلام يصادف طبيعته ويؤثر فيه ، فيتأثر وينفعل .

ثم يقول سبحانه مبيِّناً مهمة هذا الذِّكْر وهذا القرآن المبين : ﴿ليُنذرَ مَن كَانَ حَيًّا (٧٠)﴾[يس] نعم ، سماهم أحياء وخطابك لهم دليل على أنهم أحياء ، لكن أحياء الحياة المادية التى تنتهى بالموت ، إنما

هناك حياة أخرى بالعقل والفكر وبالقيم الروحية ، وهذه لا يظهر أثرها إلا بعد الموت .

والناس جميعاً يشتركون فى الحياة المادية ؛ لذلك يُسمَّى العنصر الذى يدخل على الحياة المادية لتأخذ طابع الحياة الروحية (الروح) ، فالروح روح من أمره سبحانه ، وبعد أنْ يعطيه الروح التى تحيا بها المادة يعطيه الروح التى تحيا بها القيم ، وحياة القيم قُلْنا : إنها ترتقى بك لتعطيك قيمة فى الآخرة ، وقد تعطيك فى الدنيا راحة البال واستقامة واستقراراً ، لكن تظل الحياة الحقيقية فى الآخرة .

فإذا شاء الله أُعْطى الإنسانُ حياةً موصولة كما أعطى سيدنا يحيى ، فلما دعا سيدنا زكريا ربه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّى وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّى خِفْتُ الْمَوَالِىَ مِن وَرَائِى وَكَانَتِ امْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦)﴾ [مريم]

فأجابه الله : ﴿يَـٰزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا (٧)﴾ [مريم]

إذن : بشَّره الله بالغلام ، وسمَّاه اسماً يدل على أنه سيعطيه حياة موصولة ؛ فحين تسمى ولدك ذكى مثلاً تفاؤلاً أن يكون ذكياً ، أو نبيل تفاؤلاً أن يكون نبيلاً ، لكن أتملك أنت أنْ تحقق رغبتك هذه .

لذلك قال الشاعر :

وَسَمَّيْتُهُ يَحْيَى لِيحَيْا فَلَمْ يَكُنْ ... لِرَدِّ قَضَاءِ اللهِ فِيهِ سَبِيلُ

نعم ، أنت سميتَ ، لكنك لا تهب الحياة ، وواهبُ الحياة هو الله ، فإذا سَمَّى الله يحيى فلا بُدَّ أن يحيا حياة موصولة ؛ لذلك مات سيدنا

يحيى شهيداً ، لتتصل حياته الدنيا بحياة الآخرة ، وليحقق فيه ما أراده الله .

ومعنى : ﴿ وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠) ﴾[يس] أى : يستحق لهم العذاب ؛ لأنهم لم ينتفعوا بالإنذار .

ثم يتحدث الحق سبحانه بعد ذلك عن بعض آياته فى الكون :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾

هنا نقلهم الحق سبحانه إلى مجال المادة التى لا يستطيعون إنكارها ، وقلنا : إن الرؤية فى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا (٧١) ﴾ [يس] يصح أن تكون رؤية بصرية أو رؤية علمية ﴿ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا (٧١) ﴾[يس] قوله ﴿ مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا (٧١) ﴾[يس] ينفى المشاركة يعنى : هذه صنعتنا وخَلْقنا لم يشاركنا فيه أحد ، ولم يعاونَّا فيه أحد ، بل هو خَلْق لله وحده .

وكلمة ﴿ أَنْعَامًا (٧١) ﴾[يس] هى الأنعام التى ذُكرت فى سورة الأنعام : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤) ﴾ [الأنعام]

وهى البقر والإبل والغنم والماعز ، وسميت أنعاماً لأنها النعمة

البـارزة فى أشيـاء مـتعـددة ، ننتفـع بها فى حـياتنـا ، فنأخذ منهـا الصوف والوبر والجلود والألبان ، ونحمل عليـها الأثقال ، وهذه كلها نعَم واضحة فى البيئة العربية .

ثم إن خَلْق الأنعام فى ذاته نعمة . وقوله سبحانه ﴿ فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) ﴾[يس] نعمة أخرى ؛ لأن هناك حيوانـات أخرى متوحشة لا تُملَك إلا بالصيد وبالقوة ، وهى قليلة النفع إذا ما قُـورِنت بالمستأنسة التى ينتفع بها الإنسان ، فيسوقها ويركبها ويحلبها .

ثم نعمـة التذليل ﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ (٧٢) ﴾[يس] وإلا فإذا خلقها الله ولم يُذلِّلها ما استطاع الإنسانُ تذليلها ، ولا الاستفادة منها ، فالجمل مثلاً رغم ضخامـة حجمه وقـوته ، إلا أن الطفل يسوقه ويُنيخـه ويركبه ، كيف ؟ لأن الله ذَلَّله وسـخَّره ، أما الثعبـان فمع صغَر حـجمه إلا أننا نخافـه ونهرب منه ؛ لأن الله لم يُذلِّلـه لنا ، بل البرغـوث فى الفراش يشاغبك ويقلقك ، وليس لك سلطان عليه .

إذن : فخَلْق هذه الأنعام فى ذاته نعمة ، وتمـلّكها نعمة ، وتذليلها نعـمـة ، وهذه النِّعم للمـؤمن والكافـر على السـواء ، لأنهـا من عطاء الربوبية . إذن : كان عليهم أن يحتـرموا هذه ، وأن يسألوا أنفسهم : كيف نكفر بالله وهو يوالى علينا كل هذه النِّعَم ، وليت الأمر يقف عند كفرهم هم ، إنما يتعدى ذلك حين يمنعون الرسل من نَشْر دعوتهم .

وقولـه سبحـانه : ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ (٧٢) ﴾[يس] أى : ما يُركب من الدواب . ورَكُوب مثل قولنا : شاة حَلُوب يعنى : تُحلب ﴿ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) ﴾[يس] أى : من لبنـهـا وهى حــيـة ، واللبـن نأكل منه الجـبن والزبدة .. الخ ﴿ وَلَهُمْ فِيـهَا مَنَافِعُ وَمَشَـارِبُ (٧٣) ﴾[يس] مـشارب جـمع مشرب . والمـراد القِرْبة التى كانوا يشـربون بها ، وتُصنع من جلود